



## ❖❖❖ التراث العربي ❖❖❖

ينصون صراحة على أن تأويلهم للنص القرآني لا يلغي معناه الظاهري المعتمد على فهم اللغة وتركيبتها، فهم بذلك يختلفون عمن اتخذ التأويل أساساً للفهم والعمل من أصحاب المذاهب الأخرى.. لذلك صرح ابن عربي في غير ما موضع بأن هذا من باب الإشارة لا من باب التفسير (٩).. فمن جملة ما اتسع الصوفية في تأويله نص آية النور (الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح، المصباح في زجاجة، الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة، زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار، نور على نور، يهدي الله لنوره من يشاء، وضرب الله الأمثال للناس، والله بكل شيء عليم) (١٠). وقد ورد في تأويل هذه الآية كلام كثير، وخصتها الإمام الغزالي بالتأويل في كتاب وسمه باسمها "مشكاة الأنوار" وتم تأويله على النحو التالي:

- ١- المشكاة: هي الروح الحساس، وهو الذي يتلقى ما تورده الحواس الخمس وكأنه أصل الروح الحيواني وأوله، وهو موجود للصبي والرضيع، وأوفق مثال له من عالم الشهادة : المشكاة..
- ٢- الزجاجة: وهي تقابل الروح الخيالي الذي يستثبت ما تورده الحواس ويحفظه مخزوناً عنده ليعرضه على الروح العقلي الذي فوقه عند الحاجة إليه، وخواصه أنه من طينة العالم السفلي الكثيف، لكنه إذا صُفي ورقق وهُذب صار موازياً للمعاني العقلية ومؤدياً لأنوارها، ثم إن الخيال محتاج إليه لضبط المعارف العقلية فلا تضطرب ولا تنزلزل، وهذه الصفات لا تتوافر في عالم الشهادة إلا للزجاجة فهي في الأصل جوهر كثيف لكنه صُفي ورقق حتى لا يحجب نور المصباح، بل يؤديه على وجهه ثم يحفظه عن الانطفاء بالرياح العاصفة والحركات العنيفة.
- ٣- المصباح: وهو الروح العقلي الذي به إدراك المعارف الشريفة الإلهية، ولذلك كان الأنبياء سُرُجاً منيرة..

٤- الشجرة: وهي تقابل الروح الفكري الذي هو قابل للمضاعفة، فهو يبتدئ من أصل واحد، ثم تنشعب منه شعبتان.. وهكذا إلى أن تكثر الشعب بالتقسيمات العقلية.. ثم تقضي بالآخرة إلى نتائج هي ثمراتها، وهذه الثمرات تعود بذوراً لأمثالها.. هذا الروح الفكري الذي يبدأ من واحد ثم يتلاقح مثاله في عالمنا هذه الشجرة، وخصت شجرة الزيتون بالاختيار لأن الزيت يستمد منها، وهو مادة المصابيح، وتختص بخاصية زيادة الإشراق.. ولذلك كانت هذه الشجرة مباركة لكثرة ثمرها وما يفوضه من خير" وإذا كانت شعب الأفكار العقلية المحضة خارجة عن قبول الإضافة إلى الجهات والقرب والبعد، فبالحري أن تكون لا شرقية ولا غربية.."

٥- الزيت: وهو مقابل الروح القدسي النبوي الذي يختص به الأنبياء وبعض الأولياء لأنه في غاية الصفاء والشرف، وكأنه يتنبه بنفسه من غير مدد خارج، لذلك فهو يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار " إذ من الأولياء من يكاد يشرق نوره حتى يكاد يستغني عن مدد الأنبياء.. وفي الأنبياء من يكاد يستغني عن مدد الملائكة.. وإذا كانت هذه كلها أنواراً بعضها فوق بعض فبالحري أن تكون نوراً على نور، ونور الله المتجلي في الإنسان كمشكاة.. وتلك الأنوار اقتبست من نور الأنوار الذي ضرب لها أمثلة من العالم المحسوس (١١).

وللباحث أن يتساءل : أتوحي هذه الآية الكريمة أم تشير إلى ما ذهب إليه الغزالي في تأويلها؟  
أستطيع الآية أن تحمل ما حملها إياه الإمام؟ وهذه الأرواح ذات المراتب المتدرجة من المحسوس إلى  
المعقول والتي قابل بها المشكاة والزجاجة والمصباح والشجرة والزيت من أين أتى بها، وكيف أقام  
صلة الوصل بين بعضها وبعض؟ قد يكون من السهل البحث عن أصول هذه التقسيمات في أصول  
ثقافة الغزالي، وفعلًا فإننا وجدنا بعض الباحثين يعود بها إلى تساعات أفلوطين (٢٠٥ - ٢٧٠م) أو  
إلى أثولوجيا أرسطو (١٢) (٣٨٤-٣٢٢ ق.م) .. وليس هناك أدنى شك في اطلاع الغزالي على تلك  
الثقافات وعلى جماع ما فيها من آراء، ولكن السؤال يبقى قائماً: كيف أمكن لهذه الآراء أن تعيد  
تشكلها وتكوينها على نحو جديد يتلاءم على نحو ما مع نصٍّ محكم التنزيل؟ بل إنها حملت عليه  
وكانها تفصيل لمجمله؟..

وأرى أن أؤخر محاولة الإجابة إلى موضع آخر، لأتناول قبل ذلك أمثلة أخرى من ضروب  
التأويل التي أبدعها كبار الصوفية، وساقف لدى بعض التأويلات اللطيفة للإمام القشيري..

في لطائف الإشارات وقف الإمام القشيري لدى قوله تعالى: ( وإذ قال إبراهيم ربّ أرني كيف  
تحيي الموتى، قال : أولم تؤمن؟، قال : بلى، ولكن ليطمئن قلبي، قال : فخذ أربعة من الطير فصرهنّ  
إليك ثمّ اجعل على كل جبل منهنّ جزءاً ثمّ ادعهنّ يأتينك سعيًا، واعلم أن الله عزيز حكيم) (١٣)  
فالطيور الأربعة عند القشيري هي : طاووس وغراب وديك وبط، فإذا ذبحها فقد ذبح زينة الدنيا  
وزهرتها = الطاووس، والحرص = الغراب، والاختيال والعجب = الديك، .. والسعي لطلب الرزق =  
البط..

ورأى القشيري أن الإشارة من هذا أن حياة القلب لا تكون إلا بذبح هذه الأشياء، يعني النفس،  
فمن لم يذبح نفسه بالمجاهدات لم يخفي قلبه بالله...

وفيه إشارة أيضاً، وهو أنه قال: قطعّ بيديك هذه الطيور وفرّق أجزاءها ثم ادعهنّ يأتينك  
سعيًا.. فما كان مذبحاً بيد صاحب الخلّة مقطّعا مفرّقاً بيده فإذا ناداه استجاب له كل جزء مفرّق..  
كذلك الذي فرقه الحق وشنته، فإذا ناداه استجاب..... (من الكامل).

(ولو أنّ فوقى تربة ودعوتنى لأجبت صوتك والعظام رفات (١٤))

ومن لطائف التأويل ما تعاوره أئمة التصوف في تأويلهم لما ورد في قصة موسى عندما  
ظهرت له النار، وطلب من أهله أن يمكثوا ليذهب إليها ويأتي منها بقبس أو يجد على النار هدى..  
فذهب وكان ما توقعه، ممّا هو مشوق إليه من الهداية وذلك لما نودي: ياموسى إني أنا الله ربك فاخلع  
نعليك، وما النعلان هنا إلا الصورة الظاهرة والباطنة = الجسم والروح عند النابلسي (١٥)، والكونين  
= الدنيا والآخرة عند الغزالي (١٦)، لأنه لا يمكن وطء ذلك الوادي المقدس إلا باطراح ذنك النعلين  
الذين يسار بهما في عالم الأغيار، أما الوادي المقدس فهو الذات الوجود الحق المقدس عن كل شيء  
محسوس أو معقول.. إنه وادي (طوى) لانطواء العوالم كلها فيه واختفائها في وجوده ولانعدامها في  
حقيقته (١٧).





لم تستبين عن شفق وفجر حتى تولت وهى بكر الدهر

وأما إن كان الوقت وقت مقاساة فرقة وانفراد بكربة فلئلهم طويل كما قالوا: (من المنسرح)

كم ليلة فيك لأصبح لها أفنيتها قابضاً على كيدي

قد غصت العين بالدموع وقد وضعت خدي على بنان يدي

قوله ( يدعون ربهم خوفاً وطمعاً): قوم خوفاً من العذاب وطمعاً في الثواب وآخرون خوفاً من الفراق وطمعاً في التلاقي، وآخرون خوفاً من المكر وطمعاً في الوصول..

(ومما رزقناهم ينفقون) "يأتون بالشاهد الذي خصصناهم به، فإن طهرنا أحوالهم عن الكدورات حضروا بأحوال مقدسة، وإن دنسنا أوقاتهم بالآفات شهدوا بحالات مدنسة.. فالعبد إنما يتجر في البضاعة التي يودعها لديه سيده: (من البسيط):

يفديك بالروح صبة لو يكون له أعز من روحه شيء فذاك به (٣٠)

ما مر بنا مما عرضناه يبين لنا أن المؤول الصوفي يحاول دائماً أن ينفذ من سطح النص إلى عمقه وكأنه يسمو به من عالم الصورة إلى عالم العلم الخالص، ومن صعيد الحس المادي إلى صعيد من الإدراك المعنوي مستعيناً بإرث ثقافي بالغ الغنى والتعقيد، وبذهن خصب الخيال، وغنى لغوي نادر المثال وبيان رفيع ناهض لما انتدب له، ومن هنا كانت المقدرة التأويلية بعيدة المدى رائعة التجلي.. لقد وقفوا أمام قصة يوسف وفيها مافيه، ورأوا أن تأويلهم يخرق بها حجب الحس ويسمو بها في عالم المعاني.. لقد تناولها الشيخ الأكبر بالتأويل فغدت بين يديه رموزاً لمفاهيم مجردة، استمدتها الشيخ من الفلسفات الإشراقية التي تفاعلت لديه مع تعليمات الإسلام وتصوراته لتنتج تصوراً جديداً، فتراه يقرر أن قصة يوسف كما نعرفها في عالما الإنساني معروفة فلا معنى لذكرها، لكنها تتخذ وضعاً آخر بعد تأويلها فتقلب من قصة معروفة إلى قصة تصور قلق الإنسان وجهاده في سبيل نيل القرب من المقام الأعلى، يقول الشيخ في كتاب الأسفار "سفر المكر والابتلاء":

اعلم أن الله تعالى لما أراد من النفس المؤمنة أن تسافر إليه اشتراها من إخوتها الأمارة واللومة بثمن بخس من عرض العاجلة وحال بينها وبين العقل الذي هو أبوها فبقي العقل حزيناً لا تفتر له دمة.. فإن الإلهام الإلهي والإمداد الرباني إنما كان لهذه النفس وكان العقل يتزهر في الحضرة الإلهية بوجود هذه النفس، فلما حيل بينه وبينها لم يزل يبكي حتى كف بصره، وذلك أن البصر وإن لم يكن مكفوفاً صاحبه فإن الظلمة إذا تكاثفت وحجبت المبصرات صار صاحب البصر أعمى وإن كان البصر موجوداً يبصر به الظلمة، ولما كان الحزن ناراً، والنار تعطي الضوء لذلك قيل (وابيضت عيناه من الحزن) (٣١)، فجاء بالبياض، فإن البياض لون جسماني كما أن الضوء نور روحاني (٣٢).

وهكذا تحولت قصة يوسف على يد الشيخ الأكبر إلى ما يشبه الترجمة الفلسفية، أو لنقل ترجمة للروح المعتملة في سيرها نحو الملأ الأعلى وفي صراعها ضد الشهوات، أما امرأة العزيز "زليخا" فقد تحولت بالتأويل إلى النفس الكلية التي تهب نفسها ليوسف، وتمكنه من رؤية النفوس الجزئية وهن نسوة في المدينة خارجاً عنها.. ولما هم بها- أي بالنفس الكلية ليأخذ منها ما أودع الله من الحقائق فيها من غير أمر إلهي له بذلك غار الحق أن يتصرف عبده في شيء من غير أمره، فأظهر له في سره برهان عبوديته، فتذكر عبوديته فامتنع من التصرف بغير أمر سيده فحبسته النفس في سجن هيكله، فلم يزل يناجي في سره سيده بالعبودية حتى أقرت النفس أنها الطالبة لاهو، فأثبت له السيد ان حفظ والأمانة، ولو هم بسوء لم يكن أميناً، ولو فعل لم يكن حفيظاً، ولهذا قال: (لنصرف عنه السوء والفحشاء) (٣٣) فولاه الملك والسيادة بدلاً من العبودية الكونية الظاهرة التي كان فيها قبل ذلك، ثم أجدب محل العقل الذي هو الأب وسمع بالرءاء الذي في مدينة ابنه وهو لا يعلم أنه ابنه لأنه أعمى، فبعث إليه بالرحم لينيله شيئاً مما أمن عليه فبعث إليه بثوبه الذي فيه رائحته وهو على صورته، فلما استنشق الرائحة وألقاه على وجهه أبصر قميصه فأخذ في الرحلة إليه ابتداءً في عز يناقض سفر ابنه.. فلما دخل عليه سجد لأنه معلمه الذي يهبه من الله ما تقوم به ذاته ويتنعم به وجوده... (٣٤).

والمراجع لتأويلات الصوفية يلاحظ اختلافاً في تأويلاتهم، وهذا يعود إلى التفاوت العلمي والثقافي بين مؤول وآخر، وهم يرون أن ذلك يعود إلى الخلاف في الكشف والإلهام الذي هو خصوصية لكل شيخ..، لقد كان شيوخهم الكبار كالغزالي وابن عربي وابن سبعين (٦١٣-٦٦٩هـ) والناقلي من كبار المتمرسين بالثقافات المختلفة والعارفين بالأديان وفلسفات الشرق واليونان.. كل هذا هياً لهم أن ينفذوا إلى النص الإلهي وغيره بثقافتهم ويحملوه عليها أو يحملوها عليه دون أن يفقد خصوصيته، وهم كما يرون إنما يتعمقون في فهم النص ويتبعون به عن ظاهريته، وينفذون إلى المقاصد الحقيقية والمرامي الخفية، غير أن هناك أمراً هاماً يجب أن يلاحظ في تأويلات كل منهم ويتجلى ذلك في خضوع التأويل للشرط الاجتماعي الذي يُنجز التأويل في ظلال هيئته، وعند أخذنا الشرط الاجتماعي السياسي بعين الاعتبار يمكننا أن نفهم طريقة الغزالي وابن عربي وغيرهم في حل معضلات مجتمعهم ومشكلاته وتناقضاته فـ "حين يجد ابن عربي أن هذه الحلول لا تجد صدى في الواقع يتجاوزها مكوناً بناءً سياسياً باطنياً روحياً راقياً يعتبره هو العالم الحقيقي ودولة الباطن، ويعتبر أن هذه المعرفة معرفة ذوقية حدسية، ينكرها العقل والحس، ولكن المنكرين معذورون لأن حقيقة الوجود تتجلى لهم على قدرهم وينتهي ابن عربي إلى أن الرحمة الإلهية الشاملة ستنتظم الجميع في نهاية الأمر" (٣٥)..

وطرائق الصوفية في تأويل الشعر والعبارات الشطحية هي نفسها طرائقهم في تأويل الكتاب العزيز، ومن هنا برز حسن تأويلهم في تأويل الشطحات، كما برزت قدرتهم الفائقة في تأويل الشعر بنقله من المعاني الحسية المادية إلى المعاني المعنوية مستفيدين من ثقافة المذاهب والفلسفات كافة..

إن جهود الصوفية في التأويل تعدّ من الجهود المهمة الجديرة بالتأمل والدرس، وفيها تتجلى مشكلة النص، إنها نتيجة تفاعلات حية عميقة بين ثقافتهم وبين مجتمعاتهم تتجلى بتأويلاتهم لمحكم





## □ مراجع البحث:

- إحياء علوم الدين أبو حامد الغزالي - المكتبة التجارية- القاهرة ، بلا تاريخ.
- الأملار : محيي الدين بن عربي ، نشر ضمن رسائل ابن عربي، دار إحياء التراث ..
- الأعلام : خير الدين الزركلي ط٣ - بيروت.
- الإمام القشيري .د. إبراهيم بيسيوني ، مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة ١٩٧٢.
- بحث في اللغة والنحو والبلاغة، د. عبد الإله نبيان، اليمامة- حمص ١٩٩٥.
- تأويلات أهل السنة. أبو منصور الماتريدي ، تح: إبراهيم عوضين والسيد عوضين المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية- القاهرة ١٩٧١.
- رسائل ابن العربي - للشيخ محيي الدين بن عربي - دار إحياء التراث العربي / عن طبعة الهند .
- رسالة في حكم شطح الولي، عبد الغني النابلسي، مطبوع ضم كتاب شطحات الصوفية..
- روح المعاني ، محمود الألوسي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- شطحات الصوفية ، د. عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، الكويت ١٩٧٦
- فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال .ابن رشد، دراسة وتحقيق محمد عمارة، دار المعارف بمصر ١٩٧٢
- فصوص الحكم. محيي الدين بن عربي. تحقيق د. أبو العلا عفيفي- البابي الحلبي القاهرة ١٩٤٦
- فلسفة التأويل .د. نصر حامد أبو زيد، دار الوحدة ، بيروت ١٩٨٣
- كشف الأسرار لعبد العزيز البخاري على أصول الإمام البزدوي - استانبول ١٣٠٧هـ
- الكليات، الكفوي، تح:د. عدنان درويش ومحمد المصري وزارة الثقافة- دمشق.
- لطائف الإشارات، الإمام القشيري، تح: د. إبراهيم بيسيوني، دار الكاتب العربي - القاهرة ١٩٧٠.
- مذاهب التفسير الإسلامي، اجنتس جوك تسيير، ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار. مكتبة الخانجي بمصر ١٩٥٥
- المسودة في أصول الفقه ، آل تيمية ، تح محمد محيي الدين عبد الحميد.. مطبعة المدني - القاهرة ١٩٦٤
- مشكاة الأنوار - أبو حامد الغزالي ، تحقيق د. ابو العلا عفيفي. اصدار القومية - القاهرة - ١٩٦٤
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم - محمد فؤاد عبد الباقي . ط. كتاب الشعب القاهرة ١٣٧٨هـ.